المجلة التاريخية الجزائرية
ISSN: 2572-0023 / EISSN: 2716-9065
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/664
المجلد:09، العدد:01 (2025)، ص254-270

نظرة المؤرخين العرب لتاريخ الوجود العثماني بين الأيديولوجيا والكتابة الأكاديمية

The Arab historians ' view of the History of the Ottoman existence, between Ideology and Academic Writing

أمينة مولوة
جامعة المدية (الجزائر)
aminamouloua23@yahoo.com

معلومات المقال

تاريخ الارسال:
2025/03/31
تاريخ القبول:
2025/05/06

الكلمات المفتاحية:
- ✓ التاريخ العثماني
- ✓ المؤرخون العرب
- ✓ الايديولوجيا
- ✓ البحوث الأكاديمية

الملخص:

تهدف هذه الدراسة إلى البحث في وجهات النظر العربية المتباينة حول تاريخ الدولة العثمانية بصفة عامة والوجود العثماني في البلاد العربية بصفة خاصة. من خلال تسليط الضوء على أصحاب التوجه الأيديولوجي القومي الذين أدانوا الدولة العثمانية وأفرطوا في انتقادها، متأثرين بأفكار المدرسة الاستعمارية وكتابات المستشرقين الأوروبيين التي غالباً ما حملت طابعاً تضليلياً، والتيار الإسلامي الذي بالغ في تقديسها باعتبارها آخر دولة وخلافة إسلامية. وفي مقابل هذين التوجهين، ظهرت فئة من المؤرخين الذين سعّوا إلى إعادة تقييم الوجود العثماني في البلاد العربية، من منظور علمي موضوعي، مستندين إلى منهجية بحث دقيقة، بالاعتماد على الوثائق الأصلية، والرجوع إلى المصادر العربية والعثمانية الأساسية بما في ذلك الكتب والمخطوطات، بهدف قراءة متوازنة للتاريخ العثماني، وفق رؤية نقدية متجردة من الأحكام المسبقة والتأثير الأيديولوجي، سواءً العاطفية منها أو المتأثرة بالتحيزات الاستشراقية.

Article info

Received:
31/03/2025
Accepted:
06/05/2025

Key words:
- ✓ Ottoman history
- ✓ Arab historians
- ✓ Ideology
- ✓ Academic research

Abstract:

This study aims to investigate the different Arab views on the history of the Ottoman state in general and the Ottoman presence in the Arab countries in particular. By highlighting the owners of the national ideological orientation who condemned the Ottoman state and over-criticized it, influenced by the ideas of the Colonial School and the writings of European Orientalists, which often carried a misleading character, and the Islamic current that over-revered it as the last Islamic State and caliphate. In contrast to these two trends, a class of historians emerged who sought to reassess the Ottoman presence in the Arab countries, from an objective scientific perspective, based on a careful research methodology, relying on original documents, and referring to the basic Arab and Ottoman sources, including books and manuscripts, with the aim of a balanced reading of Ottoman history, according to a critical vision devoid of prejudices and ideological influence, both emotional and influenced by Orientalist prejudices.

مقدمة

يعتبر تاريخ الدولة العثمانية ومجتمعاتها ونظمها السياسية والحضارية حلقة أساسية من حلقات التاريخ الإسلاميّ، ومن المعروف أنها ضمّت شعوباً متعددة الأعراق والديانات والمذاهب، وكانت البلاد العربية من بين المناطق التي خضعت للحكم العثماني لما يقارب أربعة قرون، ممّا جعل هذا الوجود موضع جدل ونقاش بين الباحثين والمؤرخين على مختلف توجهاتهم الفكرية، ويمكن القول بأن التاريخ العثماني – في مختلف جوانبه – تعرض لإهمال وتحريف مقصود من قبل المدارس الاستشراقية والاستعمارية، وكان لها أثر عميق على الشعوب التي شاركت العثمانيين ماضيهم.

فالمطلع على ما كتبه غالبية المؤرخين العرب يجد نفسه أمام عدة تيارات فكرية متناقضة في الرؤى متوافقة في الأهداف. وفي مقدمتها التيار الأيديولوجي القومي الذي وجّه انتقادات حادة للعثمانيين، واعتبر وجودهم نير استعماري حال دون لحاق العرب بركب المدنية الغربية. والتيار الإسلامي الذي عبّر عن تأييده للدولة العثمانية باعتبارها آخر خلافة قامت بحماية العالم الإسلامي من مختلف الأخطار المحدقة به، وحافظت على وحدته الترابية لقرون عديدة، لتشهد الكتابة التاريخية تغيراً في مسارها في سبعينيات القرن 20م بفعل عوامل داخلية وخارجية، ساهمت في ظهور محاولات جادة لإعادة قراءة التاريخ العثماني وكتابته بالاعتماد على المنهج العلمي الرصين واستقاء المعلومات من أمهات المصادر والمخطوطات، وبذلك تغيرت النظرة العربية لتاريخ الدولة العثمانية بعيداً عن العاطفة والايديولوجيا.

تهدف إشكالية هذه الدراسة إلى البحث في العوامل التي شكلت نظرة المؤرخ العربي للوجود العثماني في البلاد العربية، مع إبراز أهمية القراءات السائدة للإرث التاريخي المشترك بين العرب والعثمانيين الأتراك، والتأكيد على ضرورة العناية بالذاكرة التاريخية للجيل الجديد بعيدًا عن السرديات المشوهة أو النظرات القاصرة لتاريخ الدولة العثمانية.

وقد استندنا على الفرضيات التالية:

– أن أتباع التوجه الأيديولوجي القومي انساقوا وراء الدعايات المغرضة التي كانت تروج لها المدرسة الكولونيالية والمستشرقين الأوروبيين.

– أن التيار الإسلامي حاول إعادة الاعتبار للدولة العثمانية في ظل الموجة القومية المتنامية.

– أن الأحداث التي عرفها العالم العربي والإسلامي مع ستينيات القرن 20م ساهمت بشكل جليّ في تغير الرؤية العربية للماضي العثماني المشترك.

يهدف هذا الموضوع إلى دراسة التوجهات الفكرية السائدة في كتابة التاريخ العثماني، والعوامل التي جعلت المؤرخ العربي يعيد النظر في طبيعة الوجود العثماني في البلاد العربية من خلال دراسة علمية أكاديمية عميقة خالية من الأفكار المسبقة وقائمة على التدقيق والتمحيص والتعديل بموضوعية بحتة.

Attribution-NonCommercial-NoDerivatives 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

وللإجابة عن الإشكالية المطروحة سابقاً تم تقسيم البحث كالتالي: مقدمة خُصِصت للتعريف بالموضوع، أُتبعت بثلاث عناصر، بحيث استهل النقاش بالإشارة إلى "**المسلمات الراسخة في كتابة التاريخ العثماني**"، ليأتي الحديث بعدها عن "**اتجاهات التأريخ العربي للدولة العثمانية**"، ثم التطرق إلى "**إعادة تشكيل الرؤية العربية لتاريخ الدولة العثمانية**"، وأخيراً خاتمة ضمّت أهم الاستنتاجات المتوصل إليها بعد الاطلاع على مختلف المصادر والمراجع التي تناولت الموضوع.

1.المسلمات الراسخة في كتابة التاريخ العثماني

1.1. نظرية الاحتلال، الفتح، والغزو العثماني

حاول بعض المؤرخين العرب وغيرهم اسقاط بعض المصطلحات لوصف التوسع العثماني في البلاد العربية مطلع القرن 16م، مثل: احتلال، فتح، وغزو. وفي هذا المقام يرى أصحاب التوجه القومي أنه احتلال دام أربعة قرون، بحجة أنه جاء دون رغبة من أهله وعليه وجب التخلص منه، تأثراً بالموقف المعادي للمستشرقين الغربيين اتجاه الدولة العثمانية، فعلى سبيل المثال يدعي المستشرق الروسي فلاديمير لوتسكي (1936- 2015م) بأنّ العرب قاسوا من الظلم العثماني لمدة تتراوح بين ثلاثة وأربعة قرون (لوتسكي، 2007، صفحة 14).

في حين يرى رواد التيار الإسلامي في ذلك التوسع فتحاً جديداً في تاريخ الاسلام وتوطيد لآخر خلافة إسلامية أيّ الخلافة العثمانية التي حالت دون تهاوي العالم العربي والاسلامي في قبضة الاستعمار الأوروبي الصليبي، وصانت وحدته السياسية لفترة أطول من أية دولة إسلامية أخرى، وتمكنت من صدّ الخطر الصفوي الشيعي. وعليه لا يمكن إنكار فضلها في الحفاظ على وحدة البلاد العربية الترابية ومذهبها السني، وظلت حتى آخر أيامها تسعى جاهدةً للدفاع عن الإسلام والمسلمين بغض النظر عن تأخرها العلمي وتراجعها الفكري (عفيفي، 2008، صفحة 06). بيد أن استخدام مصطلح الفتح في غير محله، لأن المؤرخين بهذا يخلطون بين السيطرة العثمانية على الأراضي العربية والفتوحات التي قامت بها في المناطق الغير اسلامية – أوروبا الشرقية على وجه الخصوص – وبذلك يستحسن استخدام مصطلح الضم لأنّ الفتح مصطلح تاريخي له مفهومه الخاص في التاريخ الإسلامي (دهيش، 1995، صفحة 59).

أما بالنسبة لمصطلح غزو فمن المعروف أنه من الألقاب المحببة لسلاطين آل عثمان، فهو في الفهم العثماني يدل على المجاهد المحارب القوي، لكن التيار الأيديولوجي ربط الغزو بالعار في وصف الدولة العثمانية بالبربرية والوحشية والاستبداد. لذلك رأى البعض ضرورة استبداله بمصطلح عثمنة الإيالات العربية التي تؤدي تلقائياً إلى تبني الأنظمة والقوانين الإدارية العثمانية. ومع ذلك يشير المتخصصين بأنّ المصطلحات الأولى ذات تأثيرات سلبية ما زال يستعملها الكثير من الباحثين والمُفكرين الذين لم يكلفوا أنفسهم عناء الاطلاع على نتاج الدراسات التاريخية المنصفة التي أشرف عليها المؤرخين الأتراك والعرب وحتى الأجانب (عفيفي، 2008، الصفحات 06-07).

Attribution-NonCommercial-NoDerivatives 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

2.1. نظرية تخلف البلاد العربية

أُطلقت العديد من الأوصاف الجائرة على الحكم العثماني، من بينها صفة السطحية، والدارسون لطبيعة الوجود العثماني في البلاد العربية، يرجعون خلفيات هذه السطحية لتمسك العثمانيين بمبدأ المحافظة على النظم الحضارية للحكم السابق، والاقتصار على بعض التعديلات الطفيفة التي يفرضها مبدأ السيادة العثمانية (غربي، 2010، صفحة 66). وعليه ادعّى القوميون العرب بأن الحكم العثماني أدى إلى تردي الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والثقافية، في حين ذهب آخرون إلى أبعد من ذلك بوصف الفترة العثمانية بـ النير الذي منع النهوض والتقدم ورسخّ حالة الركود والانحطاط، لأن الدولة العثمانية – في نظرهم – دولة رجعية منعت تسرب معالم الحضارة الغربية إلى الإيالات العربية، وقطعت دابر الاتصال بين الشرق والغرب، ولم يتأتى لهم ذلك إلا في القرن 19م بفعل الارساليات التبشيرية، وتوالي البعثات الطلابية إلى أوروبا (عفيفي، 2008، صفحة 07).

ولعلّ السبب وراء تحامل العرب على الأتراك العثمانيين يعود إلى عدم إدراك خطورة وفعالية المتغيرات الدولية الغربية التي سيطرت على مصير العالم الإسلامي – الممثل في الدولة العثمانية آنذاك – اقتصادياً وفكرياً ودينياً لتجعله فريسة لأيديولوجيته الاستعلائية (التميمي، 1994، صفحة 42). وفي هذا السياق حاول نفرٌ من مؤرخي القرن 20م اسقاط الدولة العثمانية من التاريخ القومي العربي، فنجد على سبيل المثال المؤرخ المصري محمد أنيس (1921– 1986م) يصف ذلك الوجود بمصطلح سكونية الفترة العثمانية ولا ظلاميتها فحسب، وادعى بأن العثمانيين كانوا السبب الرئيسي وراء تخلف مصر؛ إذ لم يدخلوا أيّ تغيير على نظمها الحضارية، لأنهم في الأساس منحطون ورجعيون لا يملكون أيّ رصيد حضاري، والسلطة العثمانية لم ترحب بأي تجديد في نظم الحكم السائدة وحافظت على القديم منها، وكانت بالمرصاد وراء أصحاب الفكر التنويري تشل حركتهم التحديثية، فلطالما كانوا موضوع ريبة وسخط السلطة الحاكمة (أنيس، صفحة 148).

لكن الواقع أثبت بأن هذه النظرية خاطئة تماماً، لأن الدولة العثمانية فتحت أبوابها أمام الوافدين الأوروبيين، وسمحت لهم بالإقامة في أراضيها وممارسة أعمالهم التجارية بكل حرية وفق ما تقتضيه تعاليم الشريعة الإسلامية، ولم تضغط عليهم أو تعيق حركتهم، والدليل أنّ ارسالياتهم التبشيرية كانت ناشطة بقوة، تبث أفكارها في أوساط الرعايا المسيحيين، الأمر الذي أدخل بلاد المشرق العربي في شبكة عالمية لتبادل السلع المتنوعة وشتى أنواع العلوم والمعارف، وهذا ما أكدته المؤرخة السورية ليلى الصباغ (1924–2013م) بقولها: "...**الاتصال بينّ سورية والغرب قد تشعب في العهد العثمانيّ، وإن لم يخرج السوريون إلى أوروبا فإن أوروبا وفدت إليهم عن طريق الجاليات أو السياح، الحجاج وحتى رجال الدين**..."، لذلك فإن التسليم لتلك الافتراءات أمر مناف للحقيقة (الصباغ، 1989، صفحة 14).

وفي نفس السياق؛ أشار المستشرق الفرنسي أندريه ريمون André Raymond (1925–2011م) إلى أن جزءً كبيراً من مسؤولية تعتيم صورة الوجود العثماني في البلاد العربية يقع على عاتق المؤرخين والمفكرين الغربيين الذين بثوا الدعاية المغرضّة في أوساط الرعايا العرب، وأساءوا إلى ما كان قائمًا قبل بسط نفوذهم، بحجة

Attribution-NonCommercial-NoDerivatives 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

أنهم يريدون نشر معالم الحضارة والتمدن وتحديث البلدان التي يريدون غزوّها، وفي هذا المقام يضرب مثال أسلوب المؤرخين الفرنسيين في دراسة تاريخ الجزائر في العهد العثماني، والذي صُور بأنه عصر تخلف بالكامل (ريمون، 1991، صفحة 16)، وبذلك نلاحظ كيف أثرّت الكتابات الغربية في تشويه صورة الدولة العثمانية، فأبرزت تناقضاتها وركزت على قصص الحريم في القصور وأنّ سلاطين الفترة المبكرة كانوا مجموعة من البدو الهمجيين، وما هذه الحملة المغرضة إلا نتاج طبيعي للصراع السياسي الدائم والصدام الحضاري بين الشرق والغرب (نبيل، 1985، صفحة 36).

3.1. نظرية الحكم الاستعلائي

رغم طول المدة التي حكمت فيها الدولة العثمانية الإيالات العربية، إلا أنها بقيّت سلطة حاكمة بعيدة عن فعاليات المجتمع العربي، فمن خصائص الحكم العثمانيّ أنه كانّ حكمًا غير مباشر، بحيث استعانت النخبة الحاكمة في إدارة شؤون ولاياتها بوسائط بينها وبين الرعية، نجد في مقدمتها الأسر المحلية العريقة والاقطاعية، العلماء والأعيان، الوجهاء وشيوخ القبائل والعشائر، وقد أدى التباعد بين الحاكم والمحكوم إلى ازدياد الهوة بين الطرفين، ممّا خلق نوعاً من النفور والعداء (غربي، 2010، صفحة 70).

ومما لا شك فيه أن لهذا الأسلوب مبرراته، لأن المتأمل في حجم المسؤوليات الإدارية التي أنيطت بعهدة الدولة العثمانية لإدارة مناطق شاسعة متباينة الأجناس والإثنيات والديانات، ما لم يُتح لأيّ دولة عربية على الإطلاق، فكان عليها أن تُشرع القوانين آخذة بعين الاعتبار خصوصيات كل منطقة على حدا، فنجدها سنّت قوانين نامه مصر وقوانين نامه بغداد لضمان السير الحسن لشؤون هذه الولايات واحتراماً لتقاليد رعاياها وخصوصيتها الاجتماعية والإدارية، والاقرار بالتنوع والاختلاف يدل على ديناميكية الدولة العثمانية، وهذا ما يؤكد أنها لم تفرض نظام إداري مركزي وجامد في الولايات، بل وضعت في الحسبان الإرث السياسي الحضاري للأراضي المنضوية تحت لوائها، وإن كنا لا نتجاهل الأخطاء التي ارتكبها الولاة الذين حكموا باسمها، لكن بالمقابل لا يمكن نكران فضلها وعبقريتها في احتواء الشعوب والحفاظ على خصوصيتها ووحدتها.

ومجمل القول أن الدولة العثمانية لم تكن تنظر إلى الولايات العربية نظرة تعال أو استحقار، وإنما سعت إلى التقرب من رعاياها وكبار علمائها ومفكريها، والاستفادة قدرّ الإمكان من خبراتهم وكفاءاتهم الفنية والعملية، كما منحت اللغة العربية عنايةً فائقة باعتبارها لغة القرآن الكريم، فنجد أن جهابذة العلماء من الأتراك تلقوا العلوم العقلية والنقلية في الحواضر العربية الكبرى كدمشق والقاهرة وبغداد، وإذا احتفظ العثمانيون لأنفسهم بالمناصب العسكرية والإدارية، فإنهم سلموا العرب مقاليد الأمور الدينية والعلمية والثقافية، محاولين بذلك خلق تكتل إسلامي يستطيع مواجهة الخطر الصفوي والصليبي المتربص آنذاك (المرسي، 1983، صفحة 90).

2. اتجاهات التأريخ العربي للدولة العثمانية

1.2. الاتجاه الايديولوجي القومي وموقفه من التاريخ العثماني

عرفت الكتابة التاريخية في العصر الحديث خضوعاً لعدة عوامل في سرد الأحداث والوقائع التاريخية

Attribution-NonCommercial-NoDerivatives 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

أهمها: الأيديولوجيا التي تُعرف بأنها موقف فكري يتبناه الإنسان ويمثل زاوية النظر التي يحكم ويفسر ويبدع من خلالها، وفي غالب الأحيان يستعين بها المؤرخون للاطلاع على مجريات الماضي والحاضر من خلال المنهج الذي يحدد به رؤيته للوقائع التاريخية معللاً الأحداث وباحثاً عن العوامل التي تساهم في صياغة الحاضر الذي يعيش فيه وحركيته، ويحاول من خلالها استشراف المستقبل (مخلوف، 2004، صفحة 139).

وتتفق غالبية الآراء بأن القومية العربية ظهرت كشعور تولدّ لدى العرب في النصف الثاني من القرن 19م، بأنهم أمةٌ واحدة تجمع بين أفرادها روابطٌ مشتركة، وجب المحافظة عليها والتمسك بها ودرء أيّ خطر يمكن أن يهددها، وسرعانّ ما أصبحت حركة سياسية تهدف إلى الانفصال عن الدولة العثمانية، وبعث الحضارة العربية من جديد لتحقيق الوحدة بين العرب وتشكيل دولة واحدة. وقد لعب العنصر المسيحي دوراً بارزاً في تطوريها بسبب اسهامات المدارس التبشيرية في خلق جيل من المسيحيين العرب المؤمنين بالقومية العربية، وتطلع الطبقة البرجوازية التي نشأت من خلال التعامل مع الجاليات الأوروبية، وتشبعت بمبادئ الحضارة الغربية إلى الوصول لسدة الحكم، وقد مرّت في تطورها بمرحلتين أساسيتين فبدأت الأولى من 1908-1911م، لتستمر المرحلة الثانية إلى غاية الحرب العالمية الأولى 1914- 1918م (غربي، 2010، صفحة 240).

وتجدر الإشارة بأن؛ المشروع التاريخي لجمعية الاتحاد والترقي، وسياسة جمال باشا (1873-1922م) في بلاد الشام ومحاولته في القضاء على الحركة العربية الناشئة، واتهام النخبة العربية بالخيانة أثناء الحرب العالمية الأولى بدون أي دليل ملموس (الحصري، 1985، الصفحات 154-155)، مّا سبب إثارتهم ضد الدولة العثمانية. كما لعبت الثورة العربية سنة 1916م دوراً محورياً في بلورة فكرة إدانة التاريخ العثماني ونبذ كل ما هو تركي، وكل هذه التحديّات ساهمت في تعزيز الشعور القومي العربي المستقل مؤكدةً على إبراز ملامح الشخصية القومية للأمة العربية عن طريق إعادة كتابة تاريخها وتتبع تطورها السياسي والحضاري عبر مختلف العصور، وقد تم التركيز على تدوين تاريخ العرب قبل الإسلام تأكيداً على وجود هذه الأمة وحضارتها المستقلة بعيداً عن إسهامات الأمم الإسلامية الأخرى (رؤوف، 1988، الصفحات 08-09). ومن المؤكد أنّ المد القومي الذي أرّخ للدولة العثمانية لم يكن موضع في الحياد، بل في موضع الخصومة والعداء وعبر عن تلك الفترة بالنيّر العثماني، ونجحوا إلى حد كبير في تشويه صورة العثمانيين وحكمهم للولايات العربية، وقد ساهمت الدول الاستعمارية الكبرى في تأليب العداوة بين الطرفين وتشجيع عناصرها خاصةً المسيحيين بالانفصال عن الدولة العثمانية.

ويعد الكاتب والسياسيّ اللبناني نجيب عازوري (1873- 1916م) من أهم شخصيات التيار القومي في بلاد الشام، وسبق أن دونّ موقفه من الدولة العثمانية في مؤلفه الشهير يقظة الأمة العربية Le réveil de la nation arabe أثناء إقامته في باريس، وهو يتضمّن أول دعوة صريحة من مسيحي عربي إلى الانفصال عن الدولة العثمانية وتشكيل دولة عربية برئاسة حاكم عربي (نصيرات، 2009، صفحة 156)، وقد كشف المتخصصون فيه كماً هائلاً من المغالطات والأكاذيب؛ حيث أدانّ الحكم العثماني واعتبره ظالماً ومستبداً، وعدّ العثمانيين مجموعة من اللصوص يرأسهم السلطان عبد الحميد الثاني (1876- 1909م) ويعملون على خراب

Attribution-NonCommercial-NoDerivatives 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

البلاد، بقوله: "...**يسر سلاطين الأتراك دائما أن تحيط بهم حاشية براقة، وأنّ يعيشوا بهدوء في ملذاتهم تاركين شؤون إدارتهم بين أيدي الجشعين من حاشيتهم التي لا هم لها إلا الاثراء والاحتفاظ بالحظوة...**" (عازوري، صفحة 181)، ومع ذلك لم تلق هذه الأفكار رواجًا في أوساط العرب، بحيث استُقبِل بنوع من الفتور، بينما أثر كثيراً في الدوائر الغربية، لأنّ الكتاب في الأساس وُجه إلى القارئ الأوروبي (نصيرات، 2009، صفحة 156).

فضلا عن ذلك؛ نجد الأب الروحي للفكر القومي العربي ساطع الحصري (1879-1968م)، الذي عاصّر فترة تنازع الأفكار العثمانية بمفهومها العلماني والقومي والإسلامي، فوجه اهتمامه في البداية إلى وضع أساس أيديولوجي للرابطة العثمانية التي حدد مقوماتها في "الرابطة المعنوية، ووحدة الأرض والدين"، ولا يخفى أنّ الحصري كان متحمساً للفكر العلماني، واعتبره حلقة هامة من الرابطة المعنوية، ونلاحظ تجلي أفكاره القومية بشكل واضح في كتابه البلاد العربية والدولة العثمانية، وهو بعيد عن الحياد والموضوعية التاريخية؛ حيث اعتمد على انتقاء العوالم والتعميم والنظرة الأحادية في سرد الوقائع التاريخية المتعلقة بالوجود العثماني في البلاد العربية، بأسلوب يخدم ايديولوجيته القومية (مخلوف، 2004، الصفحات 145-146).

وفي نفس السياق؛ سطع نجم التيار الليبيرالي القومي في مصر بعد اعلان الاستقلال 1922- 1952م، فنجد في طليعة القوميين المصريين حسين فوزي (1900-1988م) صاحب كتاب سندباد مصري الذي يعد أكثر انتشاراً وتأثيراً في العقل الجمعي المصري مقارنةً بالعديد من الكتب الأكاديمية (عفيفي، 2008، صفحة 22)، وهو يعتبر ضم مصر للدولة العثمانية احتلال، وأشار إلى ذلك بقوله: "...**هذه هي الحرب المجزية، وذلكم كان الغزو الأكبر: أن يعود سليم وأجناده العثمانية محملين بالأسلاب الغالية، نماذج أصيلة لحضارة مشرقة، حتى يصبح أقل عسكره أغنى من أي أمير من أمراء المماليك، أولئك المتغطرسين المنفوخين...**" (فوزي، صفحة 18)، كما عبّر عن أسفه لتخلف مصر المدني والفكري، بالمقابل أفصح عن مدى إعجابه بالمدنية الأوروبية وما حققته من ثورات علمية وعمرانية، ويدعوا إلى تقبل أدواتها دون الأخذ بالظواهر الفكرية والروحية (جبريل، 2024، صفحة 61)، وبذلك نلاحظ أنه وأصحاب هذا التوجه شجعوا على الانفصال عن الدولة العثمانية باعتبارها سبب الفوضى والتخلف في العالم العربي، وحالت دون وصول معالم الحضارة والمدنية الحديثة.

2.2. التيار الإسلامي وكتابة التاريخ العثماني

يرى أنصار التيار الإسلامي أنّ الدولة العثمانية خلافة إسلامية شرعيّة يجب الالتفاف حول سلطانها المتمثل في السلطان عبد الحميد الثاني آنذاك، خاصةً عندما شدّد على منصب الخلافة لتعبئة للشعوب الإسلامية في مواجهة الهجمة الاستعمارية الأوروبية، ودوره في الحيلولة دون سقوط الأراضي الفلسطينية في أيديّ اليهود (عفيفي، 2008، صفحة 27). وكان أبرز من تبنى هذا التيار مجموعة من المؤرخين الذين نشأوا في مصر التي طُبعت بمناخ فكري وسياسي خاصةً بعد احتلالها سنة 1882م، فقد تبلورت الاتجاهات الفكرية في الثقافة المصرية وأظهرت ميلاً نحو الخلافة العثمانية في مواجهة الاحتلال البريطاني، في حين اندفع مؤرخون آخرون للاهتمام بتاريخ العالم الإسلامي بحثاً عن سُبل لتحقيق التماسك بين أجزائه المترامية إزاء الأطماع الأوروبية

Attribution-NonCommercial-NoDerivatives 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

المتزايدة في البلاد العربية وشمال إفريقيا بشكل خاص (رؤوف، كتابة العرب لتاريخهم في العصر العثماني، 1988، صفحة 09).

ومن المعروف أنّ الحركة الثقافية في مصر أواخر القرن 19م تميّزت بالموضوعية في دراسة التاريخ، وجاء ذلك كنتيجة للتطورات السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي عرفتها بعد الاحتلال البريطاني وظهور الحركة الوطنية، ممّا أدى إلى زيادة نشاط التأريخ كوسيلة للتعبير عن القضايا السياسية والوطنية، بهدف إيقاظ الوعيّ الوطني والقومي لدى المصريين، وبذلك ساعد موقف الحركة الوطنية الداعم للدولة العثمانية ضد السيطرة الأجنبية على الاهتمام بالتاريخ العثماني من جديد (الجميعي، 1994، الصفحات 25-26). ومن رواد التوجه الاسلامي نجد: مصطفى كامل باشا (1874-1908م) صاحب كتاب المسألة الشرقية الصادر عام 1898م الذي يُمجد فيه السلطان عبد الحميد الثاني (1876- 1909م) والدولة العثمانية، ورأى ضرورة الدفاع عنها في ظل الهجمة الأوروبية الشرسة عليها والوقوف ضد التيارات القومية الوافدة من أوروبا، وذلك في إطار ما يسمى بالرابطة العثمانية التي تدعوا للّم شمل العثمانيين بكافة جنسياتهم ودياناتهم تحت راية الخلافة (عفيفي، 2008، الصفحات 14-15).

بالإضافة إلى ذلك؛ نجد المؤرخ محمد فريد بك المحامي (1868-1919م) الذي حمل شعارات الدولة العلية وتبنى تيار الجامعة الإسلامية خاصةً مع بداية الانهيار السريع للدولة العثمانية، ومشروع الخلاص الأخير المتمثل في الجامعة الإسلامية بقيادة السلطان عبد الحميد الثاني، وارتباط الحزب الوطني في مصر بالانتماء إلى الدولة العثمانية (الضعيفي، 2000، صفحة 77). فقد رأى البعض أنها دولة طبقت الشريعة الإسلامية على مدى ستة قرون، وعليه لابد من الالتفاف حولها للخروج ممّا يعانيه العرب من أهوال ومصائب من جهة، وفي محاولة لنزع الشرعية عن الاحتلال الإنجليزي لمصر من جهة أخرى، وفي ظل هذه الظروف أصدر كتابه الشهير تاريخ الدولة العلية العثمانية، وفيه أشار إلى الإهمال العربي لتاريخ الدولة العثمانية كفرع الخلافة التركية مقارنةً باهتمامهم بتاريخ الدولة العربية الإسلامية فرع الخلافة العربية (عفيفي، 2008، صفحة 15).

وبعد نكسة العرب في سنة 1967م توارت أطروحات التيار القومي الليبيرالي إلى الخلف، بالمقابل أظهرّت التيارات العربية الإسلامية كالإخوان المسلمين تعاطفاً مع ذكرى الخلافة العثمانية، مّا يعكس حنين ديني أكثر من كونه فهم صحيح للتاريخ، وقد ساعد نجاح الثورة الإسلامية في إيران سنة 1979م، والتدخل الأجنبي – خاصة الأمريكي – في البلاد العربية والإسلامية، وتراجع الأفكار الشيوعية والاشتراكية والقومية على ظهور توجه فكري جديد يُعرف بتيار الإسلاميون الجدد، ضّم مجموعة من المثقفين المؤمنين بأن المشروع الحضاري الإسلامي هو البديل الأنسب للمنطقة ويشترك مع بقية التيارات الإسلامية في نقد أطروحات المستشرقين وأثرهم المضلل على التاريخ العثماني، لكن عن طريق الحوار العقلاني مع الغرب (عفيفي، 2008، الصفحات 30-31).

ومن أبرز أتباعه نجد المؤرخ المصري عبد العزيز الشناوي (1911-1986م) صاحب كتاب الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، والملاحظ فيه تعدد مصادر التاريخ العثماني منذ نشأة الدولة حتى آخر

Attribution-NonCommercial-NoDerivatives 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

أيامها، كما تحدث بإسهاب عن ميادين السياسة والحرب، البناء والتأسيس، التعليم والثقافة، نشر الفنون واتقان الصنائع والعمارة والنجارة وغيرها، ومن هنا يُلاحظ أنه تغنى بأمجاد الدولة العثمانية التي عبرت بجيوشها أقاليم واسعة وأحرزت باسم الإسلام انتصارات باهرة، كما اعتمد على العديد من المصادر العربية والأجنبية، ولعلّ أبرزها كتابات المستشرق الأمريكي ستانفورد جاي شو Stanford Jay Shaw (1930– 2006م) (الجميعي، 1994، صفحة 207).

3. إعادة تشكيل الرؤية العربية لتاريخ الدولة العثمانية

1.3. عوامل تغير النظرة العربية للتاريخ العثماني

ساهمت عوامل عدة في تغير منحى الكتابة التاريخية فيما يتعلق بتاريخ الدولة العثمانية بصفة عامة ووجودها في البلاد العربية بصفة خاصة، فمع بداية الحرب العالمية الثانية (1939– 1945م)، ثم حرب 1967م بدأت المحاولات تأخذ مجراها على الصعيد الداخلي في الدوائر القومية المختلفة، وعلى جانب العلاقات مع أوروبا في إطار فكرة الحوار العربي – الأوروبي، وبعد نشوب الثورة الإيرانية سنة 1979م، وانهيار الاتحاد السوفييتي في مطلع التسعينيات، برزت جمهوريات آسيا الوسطى التركية – الإسلامية، وسرعان ما قوّت تطلعها للعودة إلى دوائها الحضارية السابقة، وسعت لتوحيد الروابط مع الدول العربية والإسلامية، وبذلك تولد الشعور بالحاجة إلى إعادة قراءة التاريخ من جديد (الدجاني، 1995، صفحة 55).

وفي العالم العربي باشرّت المدارس الوطنية في إعادة قراءة وكتابة تاريخها بعد نيل الاستقلال واستمرار المواجهة مع الكيان الصهيوني، بحيث دفع الحرص على التاريخ القومي إلى زيادة الاهتمام بدور الوثائق القومية (عفيفي، 2008، صفحة 40). ومن ناحية أخرى أدى ظهور الولايات المتحدة الأمريكية على مسرح الأحداث، وقيامها بطرح فكرة النظام الشرق أوسطي، ومحاولة فرضه على دولها وأممها وشعوبها، إلى تقديم رؤى تاريخية معمقة للمنطقة العربية، وبذلك أُخذ بعين الاعتبار ضرورة إعادة قراءة التاريخ المشترك بين العرب والدولة العثمانية بعيداً عن العاطفة والايديولوجيا (الدجاني، 1995، صفحة 55).

2.3. الجهود المبذولة لإعادة كتابة التاريخ العثماني

تعددّت الجهود المبذولة لتوثيق تاريخ الدولة العثمانية، من قبل الباحثين الأتراك والغربيين والعرب على حد سواء، وقد تم الاعتماد على مناهج البحث التاريخي المتقدمة، مّما أتاح رؤية أكثر شمولية لهذا التاريخ، ساعدها على ذلك تنوع المصادر كالسجلات الرسمية والمخطوطات والوثائق الأرشيفية، إضافةً إلى التحليلات الحديثة التي تُسلط الضوء على الجوانب السياسية، الاقتصادية، والاجتماعية للدولة العثمانية.

1.2.3. فتح دور الأرشيف العثماني

قدمّت دور الأرشيف العثماني في إسطنبول ممثلةً في أرشيف رئاسة الوزراء، وأرشيف وزارة الخارجية مع بدء تنظيمه منهلاً ثميناً للطلاب والباحثين، كما ساعدت أعمال جهابذة التاريخ العثماني الأتراك وفي مقدمتهم خليل إينالجيك (1916–2016م) وبعض المستشرقين المنصفين أمثال الأمريكي دونالد كواترت Donald

Attribution-NonCommercial-NoDerivatives 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

Quataert (1941 -2011م) والألمانية ثريا فاروقي Suraiya Faroqhi في وضع اللبنات الأولى لإعادة قراءة التاريخ العثماني، وقد صاحب الاهتمام العالمي بالدولة العثمانية، الصحوة الإسلامية التي سعّت إلى إبراز أهمية دراسة آخر دولة وخلافة إسلامية، وساهم ذلك بشكل كبير في إنعاش الدراسات العثمانية في العالم العربي وخارجه، خاصةً وأنه واكب حركة الستينات والسبعينات في العالم الأوروبي وأمريكا، أو ما يُعرف بنقد الاستشراق وقراءة تاريخ العالم قبل الاستعمار عن طريق مراجعة دقيقة للتاريخ الاقتصادي والاجتماعي (عفيفي، 2008، صفحة 40). وفي هذا المقام يذكر المؤرخ التونسي عبد الجليل التميمي أنه خلال عام 1965م أتيحت له فرصة العمل في الأرشيفات بإسطنبول، وهناك أدرك مدى ثراء وقيمة الوثائق العثمانية عندما حصّل رخصة الاطلاع عليها، الأمر الذي دفعه للمطالبة بوجوب الحوار والتبادل المعرفي بين المؤرخين العرب والأتراك والمؤرخين الدوليين (التميمي، 1994، صفحة 97).

2.2.3. عقد المؤتمرات العلمية

تجلى الاهتمام المتزايد بالتاريخ العثماني من خلال تنظيم المؤتمرات العلمية وتأسيس مراكز بحثية متخصصة، وكذلك إقبال أعداد كبيرة من الطلاب الباحثين في التاريخ العثماني، وكل هذا غير نظرة العرب تجاه ماضيهم العثماني، كما تم إعداد و نشر عدد هائل من المخطوطات التاريخية العثمانية، فعلى "الصعيد العالمي" ظهرت اللجنة الدولية للتاريخ الاقتصادي – الاجتماعي للدولة العثمانية وتركيا عام 1977م؛ حيث عقدت العديد من المؤتمرات الدولية، وكانت الانطلاقة من أنقرة، ستراسبورغ 1980م، بيرنستون 1983م، ميونخ 1986م، اسطنبول 1989م، اكس – أون بروفانس 1992م، هايدلبرج 1995م وغيرها. أما على "المستوى العربي" نجد أنه تم تنظيم 14 مؤتمر منذ 1981م، وجرى اختيار الملفات بمنتهى الدقة؛ حيث تم تناول أوضاع الإيالات ومصادر وثائقها في العهد العثماني، ثم الحياة الاقتصادية والاجتماعية والإدارية والفكرية للولايات العربية، تلتها مؤتمرات عديدة حول الاقتصاد البيني والتواصل البشري والاجتماعي، وقد رافق هذه المؤتمرات حوارات رفيعة المستوى بين المشاركين العرب والأتراك والدوليين، استطاعوا من خلالها أن يبرزوا السمات الفاصلة للعلاقات العربية التركية (عفيفي، 2008، صفحة 41).

وكانت تونس في الريادة، فمنذ بداية الثمانينات باشرت في عقد سلسلة المؤتمرات الدولية بصفة دورية حول تاريخ الولايات العربية في العصر العثماني، يمكن عنونتها بـ "التاريخ الاقتصادي والاجتماعي والفكري للولايات العربية"، بحيث عقدت مؤسسة التميمي سيرمدي بالتنسيق مع اللجنة العربية للدراسات العثمانية في سبتمبر 1982م أول مؤتمراتها حول الولايات العربية ومصادر وثائقها، وجاءت هذه كنتيجة لاطلاعه على الوثائق الأرشيفية التي ساعدت في الاستفادة من المنظور الجديد للتاريخ الاقتصادي – الاجتماعي آنذاك (التميمي، 1994، الصفحات 97-98). وكانت فرصة ثمينة للمتخصصين على اختلاف توجهاتهم الفكرية للقاء والحوار ومشاركة اكتشافاتهم وهمومهم البحثية وطموحاتهم العلمية، وبذلك تبلور الإيمان العميق بأهميّة كتابة تاريخ الولايات العربية أثناء العهد العثماني على ضوء الوثائق العثمانية والعربية، لما له من أثر إيجابي على نوعية

Attribution-NonCommercial-NoDerivatives 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

وجودة البحث من حيث منهجيته وأكاديميته بعيداً عن التعتيم المقصود أو الاطراء المضلل وتجنب الوقوع في فخ التيار العاطفي والقومي (التميمي، 1994، صفحة 98).

3.2.3. إنشاء مراكز البحث المتخصصة في التاريخ العثماني

تواصلت جهود إعادة اكتشاف التاريخ العثماني، فبالإضافة إلى ظهور بحوث ودراسات متنوعة تناولت تاريخ العرب الحديث منذ بداية التوسع العثماني عام 1516م حتى أواخر الحرب العالمية الأولى 1918م، عُقدت ندوات ومؤتمرات علمية على الصعيدين العربي والعالمي، وتم إصدار العديد من المجلات والدوريات التي تهتم بتاريخ الدولة العثمانية، كما تأسست مراكز بحثية اضطلعت بمهمة تشجيع البحث في حقل الدراسات العثمانية، وبرز اهتمام كبير بالوثائق العثمانية والمحلية المنتشرة في أماكن عديدة. وفي هذا المقام نجد مبادرة انشاء مؤسسة "**وقف دراسات العلاقات العربية – التركية**" منذ 1984م بإسطنبول، والتي أصبحت تعرف باسم "**مؤسسة الشرق الأوسط ودول البلقان**"، بالإضافة إلى مراكز البحوث المنتشرة في أنحاء أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية (التميمي، 1994، صفحة 99).

فضلا عن ذلك؛ كان هناك العديد من المبادرات الجادة التي أسست وحدات بحثية وجمعيات ومراكز أهلية أو حكومية منها في: سيرمدي – تونس، لبنان، الموصل، الجزائر، مصر. بالإضافة إلى عدة مراكز أخرى من بينها: مؤسسة عبد الحميد شومان بالأردن، مؤسسة السديري بالمملكة العربية السعودية، مركز كامل للاقتصاد الاسلامي بمصر ومركز جمعية ماجد للثقافة والتراث في الامارات، المركز المصري للدراسات العثمانية وبحوث العالم التركي في القاهرة للبروفيسور محمد حرب وغيرها (الطباع، 1994، صفحة 14). كما أُقيمت العديد من الندوات واللقاءات التي تخص الوجود العثماني في البلاد العربية، وحتى المغرب الاقصى الذي لم يخضع للسيطرة العثمانية عقد ندوة في أفريل 1992م بالتعاون بين كليتي الآداب بالرباط وفاس، عن المغرب العربي أثناء العهد العثماني (التميمي، 1994، صفحة 99).

4.2.3. إصدار المجلات العلمية

من بين الجهود العربية المبذولة لإعادة النظر في التاريخ العثماني، نلاحظ إصدار مجلات علمية متخصصة، ومن أبرز هذه المبادرات قيام عبد الجليل التميمي بإنشاء المجلة التاريخية المغاربية عام 1974م والمجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية اللتان تصدران عن مركز سيرمدي، وحظيتا بمكانة مرموقة على الصعيد المحلي والدولي، بحيث وفرتا منبراً حراً للتحاور ونشر الدراسات والبحوث العلمية (الدجاني، 1995، صفحة 57). كما نجد مجلة الاجتهاد اللبنانية التي تأسست عام 1999م وعُنِيّت بإعادة قراءة الفكر الإسلامي والعثماني من جديد ومحاولة تقديم اجتهادات عصرية جادة (عفيفي، 2008، صفحة 13). إلى جانب مجلات أخرى اهتمت بدراسة قضايا متعددة من التاريخ العربي في العصر العثماني، أبرزها مجلة منبر الحوار اللبنانية ومجلة دراسات تاريخية السورية.

Attribution-NonCommercial-NoDerivatives 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

3.3. الدراسات الأكاديمية الجادة عن تاريخ الدولة العثمانية

شهدت الدراسات الأكاديمية حول التاريخ العثماني تطورًا ملحوظًا، منذ سبعينيات القرن 20م وما بعده؛ حيث اتجه الباحثون إلى إعادة دراسة الدولة العثمانية بعيدًا عن الصورة النمطية والروايات التقليدية، ما ساهم في تقديم فهم أعمق لبنية الدولة ونظمها الإدارية وعلاقاتها الداخلية والخارجية، بالاعتماد على المصادر المتخصصة والوثائق الأرشيفية، فأتاح ذلك رؤية أكثر شمولًا لديناميكيات الحكم العثماني، كما تم استخدام مناهج بحثية حديثة مثل التحليل الاقتصادي والاجتماعي والدراسات الثقافية، لفهم تأثير الدولة العثمانية على المجتمعات التي حكمتها، وبفضل هذه الجهود لم يعد التاريخ العثماني يُدرّس من منظور الأحداث السياسية والعسكرية فحسب، بل أصبح محورًا لدراسات متعددة التخصصات تشمل الاقتصاد، والعلاقات الدبلوماسية، والتحولات الاجتماعية، الأمر الذي أسهم في إثراء المعرفة بتاريخ هذه الدولة العريقة، وبذلك تم إعادة الاعتبار إلى التاريخ العثماني على الصعيد العربي والعالمي.

1.3.3. تحقيق المصادر العثمانية والعربية

باشر العديد من المؤرخين العرب في إعادة قراءة المصادر العربية التي أرخّت للدولة العثمانية ووجودها في البلاد العربية، مثل ليلى الصباغ التي قامت بتحقيق خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر لمحمد بن فضل الله المحبي، وكتاب المنح الرحمانية في الدولة العثمانية للمؤرخ المصري محمد بن أبي السرور البكري سنة 1995م، كما سطع اسم محمد حرب في هذا مجال التحقيق؛ إذ قام بترجمة وتحقيق العديد من المصادر العثمانية الأصيلة مثل كتاب تحفة الكبار في أسفار البحار لكاتب جلبي (1609-1657م) مع الدكتورة تسنيم حرب، ومذكرات السلطان عبد الحميد الثاني. وبدوره ساهم المؤرخ اللبناني خالد زيادة في تحقيق العديد من المصادر العربية التي عاصرت العهد العثماني، ولعلّ أهمها كتاب عبرة وذكرى أو الدولة العثمانية قبل الدستور العثماني وبعده لسليمان البستاني، وأسباب الانقلاب العثماني وتركيا الفتاة لمحمد روحي الخالدي، وغيرها من الأعمال التي ترك فيها المؤرخون العرب بصمةً واضحة، وفق منهجية علمية رصينة، وبذلك ساهموا في تقديم رؤية أكاديمية دقيقة حول التاريخ العثماني.

1.3.3.الابتعاد عن التاريخ السياسي – العسكري

قام العديد من المتخصصين في التاريخ العثماني بالابتعاد عن الصورة النمطية السائدة في دراسة التاريخ السياسي والعسكري، من خلال الاهتمام بدراسات أكثر حيوية كتحقيق المصادر التاريخية، وتسليط الضوء على الجوانب الاجتماعية والاقتصادية والحضرية لتاريخ الإيالات العربية، فنلاحظ تنامي الوعي بالمجتمعات العربية العثمانية والاقبال على الجوانب الثقافية والفكرية، والبحث في تراث العلماء ومخطوطاتهم القيمة، وبذلك لم يعد يبدوا العهد العثماني كعامل ساهم في تكوين المجتمع والثقافة العربية شكلياً، بل لعب دوراً محورياً في التاريخ العربي والإسلامي على حد سواء.

Attribution-NonCommercial-NoDerivatives 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

2.3.3.الإقبال على دراسة التاريخ الحضري

يعد التاريخ الحضري من أهم الميادين التي عرفت تطوراً هائلاً، وكان العثمانيون يعتزون بالعرب ولغتهم وموروثهم وثقافتهم، ومع دخول السلطان سليم الأول (1512–1520م) إلى القاهرة بدأت الحياة العثمانية تدب في المجتمعات العربية، ومع ذلك بقيت معرفة المدن العربية في تلك الفترة شبه غامضة، كما اتسمت الدراسات الاستشراقية لهذه المدن بالفوضى والعشوائية وعدم وجود أيّ نسق حضري استمر حتى منتصف القرن 19م بمجيء الاستعمار والتحديث، وعليه كان تفسير التاريخ الحضري للمدن العربية من منظور غربي، ما عزّز التيار الذي يصف الفترة العثمانية بالانحطاط. لذلك دعت الحاجة لإعادة الاعتبار إلى التاريخ الحضري للولايات العربية في العصر العثماني الذي يعد إحدى حلقات تطور المدن في الاسلام، وقد ساعدت المصادر الجديدة وبصفة خاصة وثائق المحاكم الشرعية والأوقاف والطابو على تقديم صورة دقيقة وواقعية للمدن العربية، كما لعبت الحسابات الآلية والنظم المعلوماتية دورا مهما في الاستفادة المثلى من هذه المصادر (عفيفي، 2008، الصفحات 42–43).

ويعتبر أندريه ريمون من أهم مؤرخي الدولة العثمانية على الاطلاق؛ إذ يعد كتابه المدن العربية الكبرى في العصر العثماني من أهم الدارسات في التاريخ الحضري، وانقلاباً خطيراً في هذا المجال، فلأول مرة تتم دراسة المدن العربية مجتمعة في دراسة واحدة، وتزداد أهمية الكتاب بانتقاده للدراسات الاستشراقية التي ادّعت عشوائية المدن العربية وعدم وجود مؤسسات بلدية وحياة اجتماعية فيها، مؤكداً بأنه لا يمكن تفسير قيام المدن العربية الكبرى بتأدية وظائفها واستمراريتها إلا بسبب قوة بنائها الداخلي، بعيداً عن ما يروج له أصحاب مقولات "الفوضى الحضرية"، وبعد هذا النقد دخل ريمون بدراسة المدن العربية مدخلاً جديداً من خلال تفهم طبيعة المدن العربية في تلك الفترة (ريمون، 1991، صفحة 07).

وعلى الصعيد العربي نجد عبد الكريم رافق (1931–2024م) يدلي بدلوه في إعادة كتابة التاريخ الحضري لبلاد الشام حتى أن رسالة الدكتوراه خاصته كانت حول (ولاية دمشق 1723– 1783م) وإن اتسّمت بالطابع السياسي نظراً لطبيعة فترة الستينات، إلا أنه كرس جهوده لدراسة التاريخ الاجتماعي الاقتصادي لبلاد الشام في العصر العثماني، ساعده ذلك على تنظيم أرشيف المحاكم الشرعية، وعليه قام بدراسة بعض المدن الشامية كدمشق، غزة، حماه وغيرها، وكانت آخر دراساته حول التنظيم الحرفي ودوره في المدن السورية في العصر العثماني (عفيفي، 2008، صفحة 45)، وأكد على أهمية الاقبال على التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للمدن العربية في العهد العثماني، وعليه عكف على المشاركة في المؤتمرات العلمية المتخصصة ونشرها في المجلات التاريخية حتى يتمكن الدارس للتاريخ العثماني من الاطلاع عليها (رافق، 1985، صفحة 06).

3.3.3.الاهتمام بالتاريخ الاقتصادي والاجتماعي

لم يعد التاريخ يُدرس فقط من منظور سياسي أو عسكري، بل أصبح من الضروري التعمق في الجوانب الاقتصادية والاجتماعية لفهم تطور الدول والمجتمعات، وفي هذا السياق اكتسب التاريخ الاقتصادي والاجتماعي

Attribution-NonCommercial-NoDerivatives 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

للدولة العثمانية أهمية كبيرة، إذ يُعد مفتاحًا لفهم آليات الحكم، والنظم الاقتصادية، والبنية الاجتماعية التي شكلت حياة الشعوب داخل الدولة.

وتعد إحدى أهم الاشكاليات التي طرحتها الدراسات الحديثة عن التاريخ الاقتصادي للولايات العربية، مسألة أوضاع العقارات والأراضي وحالة التجارة في الولايات العربية بعد الفتح العثماني الذي واكب اكتشاف رأس الرجاء الصالح. وبالنسبة لأوضاع العقارات والأراضي تأتي الأوقاف على قدر كبير من الأهمية نظراً لعِظم الدور الذي لعبته في التاريخ الاقتصادي للدول الإسلامية، ومع ذلك لم تحظ المواضيع المتعلقة بالأوقاف نصيبها من الدراسات الوافية رغم الكم الهائل من الوثائق الخاصة بها، ومن الدراسات التي عنيّت بالأوقاف في العهد العثماني الكتاب الجماعي "الوقف في العالم الاسلامي أداة سلطة اجتماعية وسياسية" الصادر عن المعهد الفرنسي للدراسات العربية في دمشق 1996م، وتعد أبحاث دانيال كريسيليوس عن الأوقاف في مصر مهمة في هذا الشأن. بالإضافة إلى ذلك حظيّ المجال الزراعي في الولايات العربية نصيبه من اهتمام أعمال المؤرخ المصري عبد الرحيم عبد الرحيم (1936- 2006م) عن الريف المصري في القرن 18م، ولا يفوتنا إسهام المستشرقين البريطانيين السير هاملتون جب Sir Hamilton Gibb (1895-1971م) وهارولد بوون Harold Bowen (1883- 1965م) في كتاب المجتمع الإسلامي والغرب عن أوضاع الملكية والخراج في الإسلام، ثم أثر المستجدات الفقهية والاقتصادية (عفيفي، 2008، الصفحات 48-49).

فضلا عن ذلك؛ تم تسليط الضوء على موضوع الحرفيين والتجار، وتعد كتابات أندريه ريمون الرائدة في هذا المجال؛ حيث قدم معلومات هامة في مؤلفه الشهير الحرفيون والتجار في القاهرة في القرن الثامن عشر الصادر عام 1973م، من خلال الاستعانة بوثائق المحاكم الشرعية، بالإضافة إلى المخطوطات والمصادر الكلاسيكية مثل الوثائق الأوروبية وكتابات الرحالة وغيرها، والكتاب في الأصل رسالة دكتوراه الدولة التي حصل عليها من جامعة السوربون (ريمون، الحرفيون والتجار في القاهرة في القرن الثامن عشر، 2005، صفحة 08).

وتعتبر المؤرخة المصرية نيللي حنا رائدة في هذا المجال، فبالإضافة إلى تخصصها في مجال المدن العربية بموضوع السكن في القاهرة في القرنين السابع عشر والثامن عشر – دراسة اجتماعية معمارية – وهو في الأصل رسالة دكتوراه في جامعة بروفانس تحت إشراف أندريه ريمون، تناولت موضوع تجار القاهرة في العصر العثماني: سيرة أبو طاقية شاهبندر التجار لمعالجة إشكاليات عالمية في تاريخ التجارة ودور التجارة والطبقة الوسطى في حركة التحديث من خلال تسليط الضوء على سيرة إسماعيل أبو طاقية شاهبندر التجار بالاعتماد على الوثائق التاريخية أهمها سجلات المحاكم الشرعية، وبذلك أعادت إلى الذاكرة المصرية والعربية صورة المجتمع المصري عند أواخر القرن 16م وأوائل القرن 17م كاشفة بطلان ادعاءات المستشرقين في دراستهم حول التاريخ العثماني والعربي مؤكدةً بأن الثقافة الوطنية العربية الإسلامية توفرت لديها في ذلك العصر مقومات التطور والتمدن، وأن قدوم الغرب لم يكن إضافة وبعث للحياة في مجتمعاتها بقدر ما شكّل عائقا أمام تقدمها وتطورها (حنا، 2017، الصفحات 16-17).

Attribution-NonCommercial-NoDerivatives 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

زيادة على ذلك؛ نجد دراسة المؤرخة الجزائرية عائشة غطاس (1955- 2011م) حول موضوع الحرف والحرفيون بمدينة الجزائر 1700- 1830م مقاربة اجتماعية واقتصادية، وهو في الأصل أطروحة الدكتوراه الخاصة بها تحت إشراف رائد الدراسات العثمانية في الجزائر ناصر الدين سعيدوني سنة 2002م، وهي تعالج التنظيم الحرفي باعتباره أحد أشكال التنظيم الاجتماعي للسكان وقوة اقتصادية واجتماعية فاعلة، معتمدةً على الوثائق المحلية وسجلات المحاكم الشرعية ودفاتر التركات الصادرة عن بيت المال (لزغم، 1432-1433هـ/ 2011-2012م، صفحة 249)، وغيرها من الدراسات التي أماطت اللثام عن فئة التجار والحرفيين في العهد العثماني. ومن بين المواضيع الهامة في المجال الاقتصادي نجد دراسة تركات الحجاج التي قدمت صورة واضحة عن الحج وتحديد دور قافلة الحج الشامي الاقتصادي كمصدر للتاريخ الثقافي، وهو ما نجده في كتابات باسكوال واستابليت، وقد ساهم حسن استخدام حجج التركات في الاستفادة من النظم المعلوماتية التي تقدمها الحاسبات الآلية؛ حيث أمكن تطبيق المنهج الاحصائي فضلاً عن اللجوء لنظام العينة في معظم العلوم الاجتماعية الأخرى (عفيفي، 2008، صفحة 52)، وبدوره أكد خليل إينالجيك بأن الدولة العثمانية دولة متعددة اللغات والأديان والإثنيات، وكذلك ذات نظام سياسي متعدد الثقافات، ومن هذا المنطلق فإن النظر إليها باعتبارها حافظت على الاستقلالية الدينية والاثنية للمجتمعات المنضوية تحت لوائها ضمن نظام سياسي قويّ بما يكفل حماية حياتهم وممتلكاتهم، ممّا يؤكد بروز صورة مختلفة تماماً للماضي العثماني (إينالجيك، 2007، صفحة 35).

خاتمة

وفي ختام هذا الموضوع يمكننا القول بأن: الصورة التقليدية والخطاب السائد عن أوضاع البلاد العربية في العهد العثماني كانت محملةً بالأيديولوجية والأحكام المسبقة، وهو ما لاحظناه في كتابات أصحاب التوجه القومي، وأبرزهم نجيب عازوري، ساطع الحصري وحسين فوزي وغيرهم من الذين تأثروا بأطروحات المستشرقين الغربيين وأتباع المدرسة الكولونيالية من جهة، والعاطفة المبالغ فيها التي بلغت حد تقديس الدولة العثمانية وغض النظر عن أخطائها وهفواتها مع أتباع التيار الإسلامي أمثال محمد فريد بك المحامي وعبد العزيز الشناوي من جهة أخرى.

وقد استمرت هذه النظرة التقليدية إلى تاريخ الدولة العثمانية حتى ستينيات وسبعينيات القرن 20م، بحيث ظهرت بوادر جديدة لإعادة النظر في تاريخ الدولة العثمانية، مؤكدةً على ضرورة دراسة الولايات العربية في إطار العالم العثماني، من خلال تفكيك الخطاب الايديولوجي وإظهار دور المدارس الاستشراقية والاستعمارية في تضليل الحقائق المتعلقة بتلك الفترة، فظهرت دراسات أكاديمية حديثة تتسم بالجدية من خلال اتباع منهج علمي رصين يقوم على اخضاع الخطاب الأيديولوجي القومي، وأفكار أصحاب التيار الإسلامي باستخدام المصادر المحلية والأجنبية، وساعد على ذلك فتح دور الأرشيف العثماني في إسطنبول.

وبذلك أقبل المؤرخون على دراسة الوثائق بمختلف أنواعها لتقديم صورة أكثر واقعية عن أحوال المجتمع والاقتصاد العربي في الفترة العثمانية بعيداً عن التاريخ السياسي والعسكري، وتوجت تلك الجهود بإنشاء المراكز

Attribution-NonCommercial-NoDerivatives 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

العلمية المتخصصة، كما عُقدت العديد من المؤتمرات العلمية التي أثرت باب النقاش بين المؤرخين حول مختلف القضايا المتعلقة بالدولة العثمانية، وبذلك تم خلق جيل جديد يقوم بدراسة التاريخ العثماني وفق منهج علمي رصين، وتدريجيا زالت القطيعة التي استمرت لسنين طويلة بين العرب والماضي العثماني.

قائمة المراجع

- التميمي عبد الجليل، (1994) **دراسات في التاريخ العربي العثماني 1453- 1918**، زغوان: مركز الدراسات والبحوث العثمانية والموريسكية والتوثيق والمعلومات.
- الجميعي عبد المنعم إبراهيم، (1994) **اتجاهات الكتابة التاريخية في تاريخ مصر الحديث والمعاصر "القرنين التاسع عشر والعشرين**، ط01، القاهرة: عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية.
- الحصري ساطع، (1985) **محاضرات في نشوء الفكرة القومية**، ط02، بيروت: مركز دراسات الوحدة.
- الدجاني أحمد صدقي، (1995) **العلاقات العربية – التركية حوار مستقبلي** ، ط01، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.
- الصباغ ليلى، (1989) **الجاليات الأوروبية في بلاد الشام في العهد العثماني في القرنين السادس عشر والسابع عشر والعاشر والحادي عشر**، ط01، بيروت: مؤسسة الرسالة.
- الضعيفي عبد العزيز، (2000) **مواقف فريد بك من الأحداث التاريخية في كتابة"تاريخ الدولة العلية العثمانية"**، مجلة الأمل .
- الطباع إياد، ماجد اللحام، (1994) **المركز المصري للدراسات العثمانية وبحوث العالم التركي ولقاء مع الدكتور محمد حرب**، آفاق التراث والثقافة، (05).
- المرسي الصفصافي أحمد، (1983) **الدولة العثمانية والولايات العربية**، الدارة ، (04)08.
- أنيس محمد، **الدولة العثمانية والمشرق العربي (1514- 1914م)**، القاهرة : مكتبة الأنجلو المصرية.
- إينالجيك خليل، (2007) **التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للدولة العثمانية 1300- 1600**، ط1، ج1، الحارس، عبد اللطيف، طرابلس: دار المدار الاسلامي.
- جبريل محمد، (2024) **قراءة في شخصيات مصرية**، المملكة المتحدة : مؤسسة هنداوي.
- حنا نيللي، (2017) **تجار القاهرة في العصر العثماني**: سيرة أبو طاقية شاهبندر التجار ، ترجمة: رءوف عباس، المملكة المتحدة : مؤسسة هنداوي.
- بن دهيش عبد الله عبد اللطيف، (1995) **قيام الدولة العثمانية**، ط02، مكة المكرمة: مكتبة ومطبعة النهضة الحديثة.
- رافق عبد الكريم، (1985) **بحوث في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي لبلاد الشام في العصر الحديث**، دمشق : دار المقتبس.
- رؤوف عماد عبد السلام، (1988) **كتابة العرب لتاريخهم في العصر العثماني**، ط01، بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة.
- ريمون أندريه، (1991) **المدن العربية الكبرى في العصر العثماني**، ط01، ترجمة: لطيف فرج، القاهرة: دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع.
- ريمون أندريه، (2005) **الحرفيون والتجار في القاهرة في القرن الثامن عشر** ، ط1، ج1، ترجمة: أحمد إبراهيم ناصر، جمال الدين باتسي، القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة.

Attribution-NonCommercial-NoDerivatives 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

- عازوري نجيب، **يقظة الأمة العربية** ، ترجمة: أحمد بوملحم، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
- عفيفي محمد، (2008) **عرب وعثمانيون رؤى مغايرة**، ط02، القاهرة, مصر : دار الشروق.
- غربي الغالي، (2010) **دراسات في تاريخ الدولة العثمانية والمشرق العربي 1288- 1916** ، ط02، بن عكنون: ديوان المطبوعات الجامعية.
- فوزي، حسين، **سندباد مصري جولات في رحاب التاريخ**، ط03، القاهرة: دار المعارف.
- لزغم فوزية، (1433-1432هـ/ 2011-2012م) **الدكتورة عائشة غطاس وكتابها الحرف والحرفيون بمدينة الجزائر 1700-1830م**، مجلة عصور جديدة، (4-3).
- لوتسكي فلاديمير، (2007) ، **تاريخ الأقطار العربية الحديث**، ط02، بيروت، لبنان: دار الفارابي.
- مخلوف مخلوف، (2004) ، **الايديولوجيا وكتابة التاريخ نموذج ساطع الحصري وكتاب البلاد العربية والدولة العثمانية** ، بحوث مؤتمر التفكير العلمي وتكامل المعرفة ، القاهرة : كلية الآداب -عين شمس.
- نبيل مصطفى، (1985) **تقويم الدولة هل هي فردوس مفقود أم صورة استبداد**، الهلال،(12) .
- نصيرات فدوى أحمد محمود، (2009) **المسيحيون العرب وفكرة القومية العربية في بلاد الشام ومصر (1840- 1918م)**، ط01، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.

Attribution-NonCommercial-NoDerivatives 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)